عقيدتي

للفيلسوف الإنكليزي المعاصر برترا ند رسل

للأديب عبد الجليل السيد حسن

الفصل الثالث

السنن الخلقية

إن الحاجة الملحة للأخلاق نجمت عن تعارض الرغبات، سواء بين أناس مختلفين أو في شخص واحد أو في أوقات مختلفة أو حتى في وقت واحد؛ فالرجل يرغب في احتساء الخمر ويرغب أيضا أن يتهيأ لعمله في الصباح التالي، ونعده فاسداً إذا اختط لنفسه الخطة التي تمكنه أقل تمكين من إشباع رغبته؛ ونحن نظن شرا بالمبذرين والطائشين حتى ولو لم يصيبوا أحدا غير أنفسهم بأذى. ويرى «بنتام» (Bentham) : أن كل الأخلاق يستطاع ردها إلى «النفع الذاتي المستنير» (١) وأن كل من يعمل دائما ناظرا على مدى الوقت إلى أقصى ما ينيله قدرا من الرضا الخاص، فإنه ينهج النهج القويم دائما. أما أنا فلا أستطيع أن أقبل هذا الرأي؛ فالطغاة الذين وجدوا سرورا طافحا من مشاهدة إنزال العذاب، لا أستطيع أن أثني عليهم حينما أدى بهم الحذر والحكمة إلى أن يبقوا على أرواح ضحاياهم . رغبة منهم في تعذيبهم في يوم آخر. ومهما يكن من شيء فإن الحذر مما تتطلبه الحياة السعيدة؛ وهناك أشياء أخرى مماثلة لذلك، حتى «روبنسون كروزو» كانت عنده الفرصة لأن يمارس المثابرة، وضبط النفس، والتبصر، التي يجب أن تعد من الصفات الأخلاقية، لأن هذه الصفات زادت من مجموع رضاه دون إلحاق ضرر بالآخرين. وهذا الجزء من الأخلاق يلعب دورا هاما في تدريب الأطفال الذين لديهم ميل ضئيل إلى التفكير في المستقبل، ولو كان ذلك قد تحقق في زمن سالف لتحول العالم إلى فردوس، لأنه سيكون من السهل منع الحروب التي هي من عمل الهوى لا العقل. ومع ذلك فإنه رغما عن أهمية الحذر فإنه ليس أهم جزء في الأخلاق. ولا هو بالجزء الذي يثير مشاكل ذهنية لأنه لا يتطلب اهتماما بشيء خارج المنفعة الذاتية.

والجزء من الأخلاق الذي لا يشمله الحذر والحكمة، هو في جوهره مماثل للقانون أو لقواعد المجتمع؛ إذ أن ذلك منهج لتمكين الناس من أن يعيشوا في مجتمع مع بعضهم بالرغم من احتمال تعارض رغباتهم، لكن يحتمل هنا منهجان جد متباينين: فهناك منهج قانون العقوبات الذي يهدف إلى تحقيق التوافق الخارجي فقط، بربط الأفعال التي تعترض رغبات أناس آخرين في حالات معينة بنتائج غير مرغوب فيها. وها هو ذا منهج التقريع الاجتماعي: فإذا عد المرء مجتمعه الخاص شريرا فإن ذلك لون من ألوان العقاب، ولذا يتجنب ما يحذره معظم الناس من أن يعرف عنهم أنهم مخالفون لدستور مجتمعهم. ولكن هناك منهج آخر أمتن أساسا وأشد إقناعا حينما يعمل به، وهذا المنهج هو أن نغير شخصيات الناس ورغباتهم بأن نضيق فرص التعارض والخلاف، بجعل نجاح رغبات إنسان واحد تتفق مع رغبات الكثيرين بقدر الإمكان، وهذا هو السبب في أن الحب خير من البغض، لأن الحب يحل الانسجام محل الاختلاف بين الأشخاص المرتبط بهم، وإن اثنين بينهما آصرة الحب ينجحان معا أو يفشلان معا، ولكن حينما يكره أحدهما الآخر، فإن نجاحه هو فشل الآخر.

وإذا كنا مصيبين في قولنا إن الحياة السعيدة التي يلهمها الحب وتهديها المعرفة، فإن من الواضح أن الدستور الأخلاقي لدى أي مجتمع ليس قطعيا ولا مكتفيا بذاته، بل يجب أن يمتحن بقصد أن يرى: هل الذي أملاه مثلا الحكمة وحب الخير؟ ولم تكن القوانين الخلقية دائما معصومة من الخطأ، فإن الأزتك (Aztecs) يعدون من واجباتهم المشددة، أن يأكلوا اللحم البشري، وذلك لئلا يصبح ضوء الشمس معتما. ولقد أخطأوا في علمهم، ولعلهم كانوا يدركون وجه الخطأ فيه، لو كان عندهم شيء من الحب نحو الضحايا المضحى بها. وبعض القبائل يحبسون البنات في الظلام من سن العاشرة إلى السابعة عشرة، خوفا من

(١) empightemab cell — imercrat

أن تجعلهم أشعة الشمس يحملون . ولكن — من المؤكد أن قوانيننا الأخلاقية الحديثة لا تحتوى على شئ مماثل لهذه الأعمال الوحشية ! ! ومن المؤكد أيضا أننا لا نحرم من الأشياء إلا تلك التي تضر حقيقة، أو على الأقل تلك التي بلغت حد الفظاعة ، حتى أن أى شخص مهذب لا يستطيع أن يدافع عنها ! ! . . ولكنى لست متأكدا مثل هذا التأكيد . وإن الأخلاق الشائعة لمزيج عجيب من النفعة والخرافة ، ولكن للجزء الخرافى القدح المعلى ، لأن الخرافة هى أصل السنن الخلقية ، فلقد كان فى الأصل يظن أن بعض الأفعال لا ترضى الآلهة ، وقد حرمت بالقانون لأن اللعنة الإلهية كان من المتوقع ألا تحل بالأفراد الآثمين فقط ، بل على المجتمع كله ، ومن ثم فقد ظهر تصور الخطيئة على أنها الشئ الذى لا يرضي الإله . وليس هناك من سبب يمكن إبداؤه عن بعض الأفعال لماذا تكون غير مرضية ؟ كما أنه من الصعوبة مثلا أن يقال : لماذا كان من غير المرضى أن يتحرق الطفل شوقا إلى لبن أمه ؟ ولكن عرف بالوحى أن ذلك هو الواقع . وفى بعض الأحايين كانت الأوامر الإلهية تفسر حبا فى الاستطلاع ؛ فمثلا أمرنا ألا نعمل أيام السبت ؛ وأضاف البروتستانت على ذلك معنى ألا نلعب أيام الآحاد ؛ ولكن نفس السلطة السامية ، تعزى إلى التحريم الجديد ، كما هو للقديم

ومن الجلى أن الإنسان ذا النظرة العلمية إلى الحياة ، لا يدع نفسه ترهب نصوص الكتاب المقدس أو تعاليم الكنيسة ، ولا يسره أن يقول إن هذا أو ذاك من الأفعال إثم، وبذلك ينتهى الأمر . بل سيتحرى إن كان ذلك بسبب ضررا ؟ وهل العكس الاعتقاد بأنه إثم بسبب ضررا ؟ وسيجد — وخصوصا فيما يتعلق بالأمور الجنسية — أن أخلاقنا الشائعة تحتوى على قسم كبير أصله خرافى محض . وسيجد أن هذه الخرافة — مثل خرافات « الأزتك » — تحتم قسوة لا لزوم لها ، وأنها تزول إذا تأثر الإنسان بالمشاعر الرقيقة تجاه جيرانهم . ولكن المدافعين عن الأخلاق التقليدية ، هم وحدهم أصحاب القلوب المتحمسة ، كما قد يبدو فى حب الحرب الذى يبديه رؤساء الكنيسة . وعلى ذلك ، فالإنسان مدفوع إلى أن يظن أنهم يعتبرون الأخلاق كشئ قانونى يمكنهم من إشباع رغبتهم فى تعذيب الآخرين : والآثم ليس من العدل خداعه ، ومن ثم فهو بعيد عن التسامح الدينى

ودعنا نتابع حياة الإنسان العادى من المهد إلى اللحد . ونلاحظ النقاط الخرافية التى تسبب له آلاما . وأبدأ من الحمل والولادة ، لأن تأثير الخرافة هنا جدير بالعناية ، فإن الوالدين إذا لم يكونا متزوجين فالطفل وصمة لا يستحق إلا اللعنة . وإذا كان أحد الوالدين مصابا بداء الزهرى ، فمن المحتمل أن يرثه الطفل . وإذا كانا قد رزقا أطفالا أكثر مما يحتمله دخل الأسرة فستكون الفاقة ونقص التغذية وتضخم السكان ، بل ومن المحتمل جدا الزنا بين الأقارب ؛ ومع ذلك فإن الغالبية العظمى من الأخلاقيين متفقة على أن الأحسن للوالدين ألا يعلما كيف يمتنعان هذا البؤس بمنع الحمل . ولكى يسر ويغتبط هؤلاء الأخلاقيون فإن الملايين من الكائنات البشرية الذين لم يكن من الواجب أن توجد ، تقاسى حياة كلها عذاب . وذلك لأنه قد فرض أن الفعل الجنسى شر إذا لم يصحب بالرغبة فى النسل . وليس شرا حينما توجد هذه الرغبة ، حتى ولو كان من المؤكد أن هذا النسل سيكون تعيسا . وقتل الإنسان فجأة ثم أكله — كما كان مصير ضحايا قبائل « الأزتك » — أقل درجة بكثير من الألم الصادر عن مولد طفل فى محيط تعس وملوث بداء الزهرى . ومن ثم فإن العذاب الأعظم هو الذى يسببه الأساقفة والسياسيون عن عمد وسبق إصرار باسم الأخلاق ؛ فلو كان لديهم حتى أصغر جذوة من الحب أو الشفقة نحو الأطفال ، ما ألصقوا بالقانون الأخلاق هذه القسوة الشيطانية

إن الطفل المتوسط يقاسى حين الميلاد، وفى أيام طفولته المبكرة، من الأسباب الاقتصادية أكثر مما يقاسيه من الأسباب الخرافية؛ فحينما يولد للقسوة الغنيات أطفال فإنهم يجدون خير أطباء ، وخير عناية ، وخير طعام وشراب ، وخير راحة ، وخير لعب ؛ بينما النساء من الطبقة الكادحة لا يتمتعن بهذه المزايا ، وغالبا ما يموت أطفالهن لنقص تلك المزايا . وقد عملت السلطات العامة بعض الشئ فى سبيل العناية بالأمهات، ولكن وهى كارهة؛ ففى اللحظة التى تمنح فيها كميات اللبن المخصصة للأمهات لتغطية العجز فى المصروفات، تنفق السلطات العامة مبالغ ضخمة فى رصف طرق

السكان الأغنياء ، حيث حركة المرور ضئيلة . ويجب أن يعلموا أنهم بمثل هذا الفرار يتسببون فى موت عدد من أطفال الطبقة الكادحة، بسبب جريمة الفقر . ومع ذلك، فإن الطبقة الحاكمة ، يشد أزرها الأعلبية الساحقة من رؤساء الدين ، وعلى رأسهم البابا ، قد أرصدوا قوى الخرافة الضخمة فى العالم لتدعيم الظلم الاجتماعى

وتأثير الخرافة فى كل مراحل التربية نكبة . فإن نسبة مئوية من الأطفال لديهم عادة التفكير . ومن أهداف التربية أن تخلصهم من هذه العادة . فالأسئلة المحرجة تقابل بالقول « صه . . صه » أو بالعقاب ، وتستخدم العاطفة الجماعية فى تلقين أنواع معينة من الاعتقاد ، وعلى الأخص الأنواع الوطنية . والرأسماليون والحربيون ورجال الكهنوت، يتعاونون فى التربية ، لأنهم جميعهم يعتمدون فى قوتهم على سيادة مذهب العواطف ، ونذرة الحكم النقدى . وبمساعدة الطبيعة البشرية تنجح التربية فى زيادة هذه الميول ، لدى الإنسان المتوسط

وها هى ذى طريقة أخرى تحطم بها الخرافة التربية ، وهى تأثيرها فى اختيار المدرسين ، فلأسباب اقتصادية ينبغى ألا تتزوج المعلمة ، ولأسباب أخلاقية يجب ألا يكون لهـــا صلات جنسية خارج نطاق الزوجية ، مع أن كل من درس علم النفس المختص بالسقم يعلم أن إطالة أمد العذرة ، جد مضر على المرأة، فلا ينبغى الاتشجع عليه المدرسات فى المجتمع السليم. وهذه القيود المفروضة تؤدى إلى رفض جانب من النسوة القويات الجريئات أن يتعاطين مهنة التدريس . وهذا كله يرجع إلى التأثير المستتر لمذهب الزهد الخرافى

والأمر أسوأ فى مدارس الطبقة المتوسطة والدنيا ، فهناك الصلوات الكنسية والعناية بالأخلاق موكولة إلى رجال الدين ؛ ورجال الدين غالبا ما يقعون فى طريقتين كملين للأخلاق ، فهم ينكرون الأفعال التى لا تسبب ضررا ، ويتجاوزون عن الأفعال التى تسبب ضررا عظيما . فهم جميعا يسخطون على الصلات الجنسية بين الشخصين غير المتزوجين اللذين يعشق كلاهما الآخر ، ولكنهما بعد ليسا متأكدين أنهما يرغبان أن يعيشا معا طوال حياتهما ، ومعظمهم يسخطون على تحديد النسل ؛ ولكن أحدا منهم لا يسخط على وحشية الزوج الذى يتسبب فى وفاة زوجته من كثرة الحمل . وقد عرفت قسيسا عصريا كان لزوجته نسمة أطفال فى تسعة أعوام ؛ وقد أخبره الأطباء أنها إذا أتت بالعاشر فقد تموت . وفى العام الثانى حملت به فماتت ، ومع ذلك فلم يسخط عليه أحد منهم ، واستمر فى أبرشيته ، وتزوج مرة أخرى . وما دام رجال الدين مستمرين فى تجاوزهم عن القسوة وفى سخطهم على الاستمتاع البرئ ، فإنهم لا يقدرون إلا على عمل الشر والضر كحراس الأخلاق الصغار

وها هو ذا تأثير آخر سئ للخرافة فى التربية ، وهو عدم تعليم الحقائق الجنسية ، فإن الحقائق الفسيولوجية الأساسية ينبغى أن تعلم فى الجنسين بكل بساطة ، وبالطبع قبل سن البلوغ أى فى هذا الوقت الذى لا يكونون فيه نشيطين . ففى سن البلوغ ينبغى أن تعلم أصول الأخلاق الجنسية غير الخرافية . ويجب أن يلقن البنون والبنات أنه لا شئ يبرر الاتصال الجنسى إذا لم يكن هناك ميل متبادل . وهذا على العكس من تعاليم الكنيسة التى تعتقد أنه ما دام الزوجان قد تزوجا ، وما دام الرجل يرغب فى طفل آخر فإن العمل الجنسى له ما يبرره أيا ما كان عظم نفور الزوجة . وينبغى أن يعلم البنون والبنات احترام كل منهما لحرية الآخر ، وأن يشعروا أنه لا شئ هناك يمنح كائنا بشريا ـ أيا كان ـ حقوقا أكثر من الآخر ، وأن الغيرة وحب التملك والاستئثار تقتل الحب . وينبغى أن يعلموا أيضا طرق التحكم فى النسل(٢) لكى يكونوا على بينة من أن الأطفال يجب أن يأتوا حينما يرغب فيهم . وأخيراً ينبغى أن يعلموا أخطار داء الزهرى وطرق الوقاية والعلاج . وعلينا أن نتوقع من التربية الجنسية على هذه المناهج زيادة فى السعادة البشرية لا تقاس

من الواجب أن يعرف أن الصلات الجنسية — فى حالة عدم وجود الأطفال — أمر خاص محض لا علاقة للدولة أو الجيران به . وفى الوقت الراهن يعاقب قانون العقوبات على بعض صور معينة من الاتصال الجنسى لا تؤدى إلى ذرية ، وهذا خرافة خالصة، لأن الأمر لا تأثير له على أحد إلا على الفردين المتعلق بهما مباشرة،

(٢) أى طرق ضبط النسل وتحديده (births control)

ومن الخطأ أن يقال — حين وجود الأطفال — إن من الضرورى لصالحهم جعل الطلاق مستحيلا ، فالعربدة والسكر المعتاد ، والقسوة والجنون ، أمور تحتم ضرورة الطلاق لصالح الأطفال تماما كما هو لصالح الزوجة أو الزوج . والاهتمام الغريب — فى الوقت الحاضر — الخاص بالزنا ليس عقليا تماما . فمن الواضح أن أنواعا عدة من سوء السلوك أشد خطرا على السعادة الزوجية من الخيانة المختلسة . وأشد خطرا من كل ذلك ، هو إصرار الذكر على إنجاب طفل كل عام ، هذا الإصرار الذى يبدو أنه من سوء السلوك أو القسوة المقننين

يجب ألا تكون السنن الأخلاقية شيئا يجعل السعادة الغريزية مستحيلة ، ولكن ذلك أثر من التشدد فى الاقتصار على زوجة واحدة ، فى مجتمع عدد الجنسين فيه ليس متعادلا . فبالطبع تحت مثل هذه الظروف تنتهك السنن الخلقية ، ولكن حينما تكون السنن كذلك فإنها لا يمكن أن تطاع إلا بانقاص كبير فى سعادة المجتمع . ولكن حينما يكون من الخير انتهاكها (أى هذه السنن) لا مراعاتها ، فمن المؤكد أنه قد حان وقت تغييرها . وإذا لم يفعل ذلك فسيواجه كثير من الناس الذين يسيرون فى طريق مضاد للمصلحة العامة ، تغييرا غير مرغوب فيه فى النفاق أو الذم . والكنيسة لا تحفل بالنفاق الذى هو جزية متملقة لسلطاتها . أما فى أى مكان آخر فقد عرف النفاق على أنه شر يجب أن لا يحاوب بهوادة

وأشد ضرراً من خرافات اللاهوت خرافات القومية ، وواجب كل فرد نحو دولته الخاصة ، لأية دولة أخرى ، ولكنى لا أعرض فى هذه المناسبة إلى مناقشة هذا الأمر أكثر من أن أشير إلى أن اقتصار اهتمام كل فرد على أبناء وطنه أمر مضاد لمبدأ الحب الذى عرفناه ، كابنة فى بناء الحياة السعيدة . وهو كذلك مضاد للشخصية المستنيرة ، لأن القومية الضيقة لا تخلق أبدا أمما منتصرة

وناحية أخرى مما يعانيه مجتمعنا من جراء التصور اللاهوتى للخطيئة ، وهى علاج المجرمين . فوجهة النظر القائلة بأن المجرمين « أشرار » ويستحقون « العقاب » ليست بشىء يستطيع أن تؤيده الأخلاق العقلية وليس من شك فى أن بعض الناس يرتكبون أشياء يريد المجتمع منعها ، وهو على صواب فى منعها ، ولنأخذ جريمة القتل كأوضح مثال ، فمن الجلى أنه إذا أردنا مجتمعا متماسكا نتمتع بمباهجه ومزاياه ، فلن نسمح للناس أن يقتل بعضهم بعضا وقتما يشعرون بميل إلى أن يفعلوا ذلك . ولكن هذه المشكلة يجب أن تعالج بروح علمية محضة ، فنسأل ببساطة : ما هى أنجع طريقة لمنع القتل ؟ ومن بين طريقتين متعادلتى التأثير فى منع القتل نختار تلك التى تسبب ضررا أقل للقاتل ، فإن إيذاء القاتل مما يؤسف له ، مثل الألم فى العملية الجراحية ، فقد يكون ضروريا مثله ، ولكنه ليس موضوعا للتفكهة والشعور بأخذ الحق الذى يسمى « الإهانة الخلقية » فليس إلا صورة من القسوة . وإيلام المجرم لا يمكن تبريره أبدا بفكرة العقاب لأخذ الثأر ، وإذا كانت التربية المصحوبة بالشفقة تساويها فى التأثير ، فإنها تفضل أكثر إذا كان تأثيرها أكثر . وبالطبع منع الجريمة وعقاب المجرم سؤالان متباينان . وموضوع توقيع الألم بالمجرم من المفروض أنه للارهاب فقط . ومع ذلك فإذا جعلت السجون إنسانية إلى درجة أن السجين ينال فيها قسطا عظيما من التربية بدون مقابل ، فقد يرتكب الناس الجرائم لكى يؤهلوا لدخولها . وليس هناك من شك فى أن السجن يجب أن يكون أقل متعة من الحرية . ولكن خير طريق لتجنب هذه النتيجة أن نجعل الحرية أكثر متعة مما هى فى بعض الأوقات فى الوقت الحاضر . ولكنى لا أريد أن أطرق موضوع « الإصلاح الجنائى » ولكنى أريد فقط أن أقول : إن من الواجب أن نعامل المجرم كما نعامل إنسانا مصابا بالطاعون ، فكل منهما خطر عام ، وكل منهما يجب أن يحد من حريته ، حتى يتوقف عن كونه خطرا ، ولكن الرجل المصاب بالطاعون موضوع للعطف والمواساة بينما المجرم موضوع اللعنة . وهذا وضع غير عقلى ، وبسبب هذا الاختلاف فى المعاملة فإن سجوننا أقل نجاحا فى شفاء الميول الإجرامية من مستشفياتنا فى علاج الأمراض

للكلام بقية

عبد الجليل السيد حسنه